الاقصوصـــــة الفرنسية

من عهد جورج صاند إلى أميل زولا

تمهيد

لقد بلغ فن الأقصوصة الفرنسية من جورج صاند إلى أميل زولا حد الاتقان ، وارتفع به الكتاب إلى أسمى مراتب الابداع ، فنال إعجاب معاصريهم ، وانتقل هذا الأعجاب إلينا ، إذ أننا لا نستطيع أن نقرأ أقصوصة من أقاصيصهم حتى نؤخذ بسحر بيانهم ، وما أودع فى عباراتهم من تحليل نفسانى ، وخيال رائع ، والوصول إلى أعماق ما فى النفس ، والتعبير عنه بألفاظ رقيقة ، وأسلوب عذب سائغ .

وقد دعانا اختيار الترجمة لهؤلاء الكتاب فى ذلك العهد ما أتوا به من تجديد فى القصص ، وما ارتفعوا بخيالهم إلى ذروة الفن ، وإن كنا لا نستطيع أن نغمط حق أمثال (موباسانت) (maupassant) والكتاب الذين تلوه فيما زودونا به من تفنن أقلامهم ، مما لا يمكننا إنكاره عليهم ، إلا أن القالب الذى صبوا فيه سبائك أسلوبهم ، ألبس لباس سابقيهم ، وفى الواقع أن أجود ما جادت به قرائح الرجال المتأخرين ، يعد معدما للكتاب فى الفترة التى وصلنا اليها الآن .

وهؤلاء الكتاب يختلفون اختلافا بينا من وجهة النظر والأسلوب والمواضيع ، فبينا ترى بعضهم خياليا ينسج لك من خياله قصة تقرأها له ، ويصورها لك صورة جميلة محبوكة حبكا فنيا يتركك تحسبها حقيقة ، بينا ترى البعض الآخر لا يعرف هوادة فى تقرير الحقائق ، ومتطرفا فى تدعيم المذهب الواقعى (Realism) ، غير أن الكل عرف كيف يكتب ما يجول بخاطره وكيف يجنى أزهار هذا الادب الجديد ؟

ويرجع الفضل فى هذا النجاح الكبير الذى لاقته الأقصوصة عند ظهورها إلى الجرائد السيارة ، فانها اختصت هذا الفن بمجهود كبير ، وشجعت كتابه حتى وصلوا به إلى السماكين ، ومن عظيم عنايتهم به أن خصصوا له صحفاً من جرائدهم ، وجعلوه باباً مستقلا وجد تشجيعاً من الجمهور ، فقد لمسوا فيه نوعاً طريفاً جديداً غير ما تعودوه من قراءة الأخبار ، فقد كانت مادتها مملة للجمهور ، فأراد أصحاب الصحف تنويع الأبواب ، لتقدم لقرائها موضوعاً حديثاً للتسلية ، وبينا كانت بعض الجرائد تعتمد على القصص المسلسلة ، كانت كبريات الصحف

والممتاز منها تعمد إلى القصة الصغيرة ، فيجد فيها قراؤها لذة وبهجة ، كما وجد فيها المتأدبون غذاء لأفكارهم ، وإرواء لظمئهم ، فكانت للجمهور كمائدة بها مختلف الأطعمة ، فيتناول كل ما يستسيغه .

١ — جورج صاند (Jeorge sand) ١٨٠٤ — ١٨٧٦

تلك الكاتبة الذائعة الصيت ، التى ظهر فى عصرها (ميريمه) (merimèe) وأجاد فى الكتابة القصصية ، وزود قراءه بثمر شهى ناضج ، وفى نفس الوقت كان يعاصرها فى أمريكا الكاتب المعروف (بوى) (Poe) ، وقد نسج على منوال الكتاب الفرنسيين فى هذا النوع الجديد من الأدب ، إلا أنه لم يلاق من الأمريكيين تشجيعاً ، ولم يقدروا قيمة ابتكاره ، ولذا انفرد باتقانه والأجادة فيه ، الكتاب الفرنسيون ، فهم الذين أتقنوا صناعته ، وتحديد غاياته ومراميه ، ولذا عد هذا النوع أيضا (أى فن القصة القصيرة) فناً إفرنسياً حتى أن جورج صاند ، هذه الكاتبة ذات الحذق الخارق للعادة ، كانت تستلهم وحى حبها فى كتابتها القصصية ، فلذا كانت تخرج عصارة تحليل نفسانى عميق ، وفلسفة عالية ، ولذا كان تأثيرها على المشاعر والعواطف أكثر وقعا من بقائها على صبغتها الأدبية ، وقد نالت من معاصريها إعجاباً ، وفى أوساطهم تقديراً عظيما ، وشهرة بالغة .

وقد اشتهر من بين قصصها قصة (المركيزة) (The marquise) التى عبرت فيها عن دقيق شعورها ، وصادق وجدانها ، وهى لم تقتصر على تحليل أخلاق تلك الطبقة الأرستوقراطية ، التى من بينها تلك السيدة العجوز التى أحبت (ممثلا) إلى حد الهوس والجنون ، ولكنها رغم هذا الحب القوى ، وتلك العاطفة المتقدة ، كانت تميتها بشدة محافظتها وظهورها أمام الجمهور ، تظهر الصلف كما هى عادة تلك الطبقة ، وقد تسللت جورج صاند إلى أعماق تلك المركيزة بحذق ومهارة ، فصورت لنا كيف يكون الهوى المبرح فى برودة الجماد المسن الشرس ، فتركت القارىء — بقوة بيانها ، وسحر بلاغتها — يهتز من دقة الملاحظات التى أبدتها فى أسلوب رقيق ، والتقاط عذبة مسترسلة ، وفى هذا يتجلى فن القصة القصيرة ، فى خيال لذيذ يصل بالقارىء إلى حد الابداع .

٢ — جولياس جانن (Jules Janin) ١٨٠٤ — ١٨٧٤

أحد النقاد الأفذاذ ، وهو الذى ساعد جورج صاند فيما وصلت إليه من شهرة ، وكان فى جريدة (Journal des Débats) إحدى أمهات الجرائد الفرنسية العظيمة وأحد صحرة الأقلام ، يحركها بين أنامله كما يشاء ، ويخط بها مايبغى ، يدبج بسهولة كما يتكلم ، ذو شخصية بارزة وذكاء متوقد متجدد ، وخيال سام ، وشعور رقيق عال متدفق .

وقد ولد ممثلا يبدى إيماءاته وحركاته على القرطاس على خشبة المسرح ، انغمس فى الحياة البوهيمية حتى كان من أمرائها ، ويمكن لك بدون عناء أن تستشف من أقاصيصه ما يود أن يصوره من المناظر الرائعة البهيجة ، بأسلوب خلاب ، وخيال واسع النطاق ، وسلاسة فى اللفظ ، وسهولة فى التعبير مما يبعث على الفخر به .

٣ — (أميل سوفستر) (Emile Souvestre) ١٨٠٦ — ١٨٥٤

وهذا محرر آخر فى الجرائد ، ذو موهبة فياضة فى الأدب ، ومن رأيه : أن على المحرر أن يواصل التجديد ، ويقدم للقراء القصص الشائقة لتسليتهم فى ساعات فراغهم ، ويتحتم أن تكون قصيرة بقدر تلك الفترات ، لتقرأ فى الاجتماعات العائلية فى المساء ، وفى الأوقات التى تصل الهجوع بالنوم ، وهو من (بريتون) ، وقد جاهد جهاداً شاقاً طويلا فى باريس ، قبل أن يصل إلى شهرته بأقصوصته (الفيلسوف تحت السقف) ، ولو قرأت له أقصوصة (العم موريس) لبلغ بك التأثير حداً لا مثيل له ، وقد انصب همه على دراسة أحوال الأوساط الوضيعة والتغلغل فى مسراتها وأحزانها الدفينة ، وصدق مشاعرها ، وتمسكها بعقائدها الدينية التى نبذها إذ ذاك « فتيان العصر » . وقد كان لنشأته فى (بريتون) ودراسته لطرائق المعيشة والعادات فيها ، طابع خاص من تصوراته وكتاباته ، دفعت بشهرة أقاصيصه إلى عرض العالم .

٤ — (الفرد دى موسيه) (AL fred des musset) ١٨١٠ — ١٨٥٧

إنه لمن السهل أن تدرك من بين كتابات هذا الخلوق الشديد الارتباك مبلغ حبه وشغفه العظيمين للبساطة ، وإنه ليقص عليك تاريخ حياته فى أقصوصته (العصفور الأبيض الأسود) وهى أحسن مجاز رائق ، فى أى أدب قرأت ، فيأتى لك فيه على نوع من الطير غير عادى ذى نباهة عظيمة ، وما هو إلا عصفور أسود يحاول أن يظهر أبيض ، بواسطة المساحيق والدقيق ، وربما يعنى بهذا العصفور جورج صاند التى عاشرها ردحاً قليلا من الزمن فى مدينة البندقية ، وانفصلا حيث لم تحل لها العشرة ، لأن كلا منهما معجب بنفسه .

وإن كان (موسيه) يبالغ دائماً فى كتاباته إلا أنه يتذرع بالصدق فى تقرير الحقائق ، وإن عد (هوجو) ذر الشعر الغنائى العصرى ، فإن موسيه لا مشاحة هو البلبل الفرد ، ولا تفرقة فى نثره وشعره من وجهة الاجادة

ويكفى أن تقرأ أقصوصته (كاميل) الشائقة ، فتريك أن (موسيه) — الذى مات فى أوج شهرته صريع الشراب — كان من أحسن الناس طيبة قلب ورقة إحساس .

محمد بهجت
بقسم المساحة بالقاهرة